العرب
الأربعاء 2019/12/04
السنة 42 العدد 11548

ذلك السّحر الخفي للسينما وللبورجوازية أيضا

ماذا تعلمنا وكيف تعلمنا أن نحب السينما في نادي السينما

في هذا المقال استعادة جانب آخر من تجربة نادي القاهرة للسينما في السبعينات من القرن الماضي، مع توقف أمام بعض الأفلام التي كان النادي عاملا رئيسيا في اكتشافها.

أمير العمري
كاتب وناقد سينمائي مصري

كان الناقد فتحي فرج هو الذي قدّم لنا أفلام لويس بونويل في "نادي السينما" بالقاهرة. وهو الذي كان يكتب عنها دراساته ويبحر في عالم هذا السينمائي الإسباني الذي اشتهر بأفلامه السريالية. لكن فتحي أتى إلى نادي السينما أيضا بفيلم بونويل "المنسيون" الذي أخرجه في المكسيك عام 1950، وهو عمل ينتمي على نحو ما، إلى "الواقعية الجديدة" ولا إلى السريالية. وكان بونويل قد فرّ من إسبانيا حيث شهد الكثير من المتاعب واستقر لعدة سنوات في المكسيك.

مقاطع شعرية

فتحي فرج يكتب أن بونويل في "المنسيون" يركز على الطبقة الدنيا في المجتمع المكسيكي، ويكشف بصراحة عن فكره السياسي الثوري وإن كان يقول "لست قادرا على فهم رأس المال" لكارل ماركس ولا أستطيع أن أجد عندي رأسا يستوعب الأرقام. وحينما يتناول المعدمين والكادحين فهو لا يفعل هذا من منطلقات ماركسية لكن من فهم ثوري سريالي، أو من عدائه للبورجوازية التي يرى فيها قمة التعفّن الاجتماعي.

وقد سعدت كثيرا بإعادة الاعتبار إلى تحفة بونويل المنسية "المنسيون" مؤخرا التي عُرضت نسخة جديدة مرمّمة منها في عدد من مهرجانات السينما الدولية الكبيرة.

وعندما يتناول فتحي فرج بالنقد فيلم بونويل الشهير "سحر البورجوازية الخفي" يقول إن بناء الفيلم لا يعتمد على حدث أو شخصية في موقف أو حبكة روائية بل هو في الواقع، ثلاثة مقاطع شعرية يفصلها ذلك المشهد الذي نراهم فيه يسيرون في الطريق. ويضيف أن الفنان يرفض أن يسجن نفسه داخل حدود الذاتية، ولكنه يبحث عن التأليف الفاعل أو المؤثر بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي، أي إيجاد ذلك التواصل بين الذاتية المفرطة والموضوعية المغرقة في المحسوس.

وحسب تعريف فتحي فرج في دراسته للفيلم نفسه، فإن السريالية "تسعى بشكل أساسي إلى تحرير الإنسان من قيوده الحالية التي تفرضها عليه المواصفات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القائمة.. وأن السريالية تلجأ إلى الآلية وهي صيغة من صيغ التفكير ترفض تماما سيطرة قيم الوعي المطلقة على النفس البشرية، أي إطلاق ما تحت الوعي (اللاوعي عند فرويد).

فتحي فرج –الذي درس الفلسفة أصلا– لا يكتب نقدا اعتياديا للفيلم، بل يبحر في تحليل فلسفة بونويل ليصل إلى نوع من التنوير أو الاستنارة الروحانية عندما يقول إن اللاوعي يزوّدنا بالأفكار والخبرات التي تتدفّق بقوة معبّرة عن الحقيقة الإنسانية الخفية، وهذه الآلية داخلية وذاتية، وهي حوار بين الإنسان الواعي والجزء المفقود من ذاته بشكل غامض والذي يتصل مع ذلك، في الخفاء بالكون.

من أكثر الذين فهموا بونويل وتعاملوا معه طويلا في أفلامه، الكاتب الفرنسي جان كلود كاريير الذي كتب معه سبعة من أهم أفلامه (لا يزال كاريير على قيد الحياة في الثامنة والثمانين من عمره). ورغم أن أحمد الحضري رئيس نادي السينما كان شخصية محافظة فكريا، ولم يكن يميل لحركات التمرّد في السينما، وكان مغرما أكثر على سبيل المثال، بسينما المخرجين جون هيستون الأميركي وديفيد لين البريطاني.

ومع ذلك أدلى بدلوه في "موضوع بونويل" عندما ترجم لنشرة نادي السينما بيانا سينمائيا راديكاليا أصدره جان كلود كاريير يقول فيه "الغموض هو أحد العناصر الأساسية في جميع الأعمال الفنية، ولكن غالبا ما يختفي هذا العنصر على الشاشة. إننا نجد أن المؤلفين والمخرجين والمنتجين يبذلون قصارى جهدهم لتجنب كل ما قد يسبّب لنا أي قلق أو اضطراب. إنهم يصرّون على أن تظل النافذة الرائعة التي تطل على عالم الشعر المتحرّر المنطلق، مغلقة تماما، ويفضلون القصص التي تستمر على نهج حياتنا العادية والتي تكرّر في كل مرة الدراما نفسها التي تساعدنا على أن ننسى الساعات المضنية التي قضيناها في أعمالنا اليومية".

> المخرج البريطاني كين لوتش حضر في سبعينات القرن الماضي إلى نادي السينما بالقاهرة لعرض فيلمه الأول «كيث»

والحقيقة أن فيلم "سحر البورجوازية الخفي" حظي باهتمام كبير في نشرة نادي السينما، فكتب عنه وترجم، الكثير من النقاد الذين بدوا منبهرين بسحر اكتشاف "سحر البورجوازية". وفي مرحلة لاحقة كتبت عنه مرة أو أكثر في سياق تأمل تجربة بونويل التي ما زلت شخصيا أعتبرها إحدى أهم تجارب السينما في القرن العشرين.

أما الناقد الراحل سامي السلاموني فقد اجتهد في فهم الفيلم وتحليله فكتب مقالا لنشرة نادي السينما بعنوان "محاولة للفهم" جاء فيه "إذا كنا نعرف أن بونويل من رواد السريالية في السينما، فمن الصعب تطبيق هذه المدرسة من مدارس الفن على فيلم كهذا، إلاّ إذا كانت السريالية تعني مجرد 'عدم الفهم' وهي أعمق من ذلك بكل تأكيد، ولكن بونويل لا يقدّم مع ذلك نوعا من سينما الشطحات الفكرية والفنية التي أصبح صغار الفنانين يلجأون إليها لتغطية فقرهم الفكري والفني في آن واحد، وليخدعونا بالعظمة الموهومة. إنه يقدّم على العكس، بناء متكاملا شديد الإحكام يتحوّل فيه الإغراب وعدم المعقولية (يقصد التغريب واللامعقول) إلى أسلوب حقيقي في تناول الفنان للعالم بحيث تصبح حتى الشذرات التي تبدو متنافرة ولا يربطها رابط موضوعي، أجزاء من رؤية واحدة وأسلوب تناول واحد شديد البساطة بقدر ما هو شديد التركيب".

حوار طريف

كان نادي السينما في ذلك الزمان، يستضيف مخرجين ومؤلفين ونقادا من الخارج سواء لتقديم أفلامهم التي سيعرضها النادي، أو لاختيار بعض الأفلام من سينما بلادهم لعرضها بالنادي ومناقشتها مع الجمهور. وعلى ما أذكر كان هذا يتم بالتنسيق مع المراكز الثقافية الأجنبية في القاهرة، أي أن مصر في عصور الانغلاق والتشدّد وقناتين فقط في التلفزيون، وثلاث صحف يومية وغياب شيء اسمه شبكة الإنترنت الدولية، كانت أكثر انفتاحا على العالم ممّا أصبحت عليه اليوم في عصر السماوات المفتوحة والإنترنت. والرقابة على أفلام نادي السينما تكاد تكون غير موجودة بدليل عرض النسخة الكاملة من فيلم "كلاب القش" Straw Dogs لسام باكنباه الذي أثار غضبا شديدا في بريطانيا وتعرض لمقص الرقيب في أوائل السبعينات.

أتذكر مثلا من الذين جاؤوا إلى نادي السينما في عصره الذهبي، المخرج اليوغسلافي ألكسندر بتروفيتش صاحب "قابلت الغجر السعداء" (حصل على أوسكار أفضل فيلم أجنبي)، وغونتر غراس مؤلف رواية "الطبلة الصفيح" التي استند عليها المخرج فولكر شلوندورف في إخراج الفيلم الذي حصل على الأوسكار.

> كانت مصر في عصور التشدّد أكثر انفتاحا على العالم ممّا هي عليه اليوم في عصر السماوات المفتوحة والإنترنت

كما جاء كين لوتش وأتذكّره بوجه خاص في أحد عروض جمعية نقاد السينما المصريين عندما أتى به فتحي فرج مع فيلمه الأول "كيث". من ضمن هؤلاء الذين جاؤوا إلى النادي الناقد الفرنسي الشهير ميشيل كلوني، وكان النادي قد كلف كلوني باختيار ثلاثة أفلام فرنسية لتقديمها في النادي.

في عدد نشرة نادي السينما (11 أبريل 1973)، نشر سامي السلاموني عرضا تفصيليا لحوار دار بين الناقد الفرنسي كلوني وأعضاء جماعة السينما الجديدة. والحوار طريف للغاية ويعكس الهموم التي كانت تسيطر وقتها على شباب السينما المصرية والقضايا الجادة التي كانت تشغلهم في علاقة السينما بالجمهور وبالعالم، واهتمامهم بمعرفة ما يدور داخل صناعة السينما في فرنسا ومقارنة الحالة الفرنسية بالحالة المصرية.

ولكن الأهم أن كلوني، وكان ناقدا بارزا شديد التأثير في الثقافة الفرنسية، أتى أيضا ليشاهد عددا من الأفلام المصرية الحديثة لكي يعدّ عنها ملفا خاصا في مجلة "سينما 73" الفرنسية. وقد لفت نظري بوجه خاص في حوار كلوني مع جماعة السينما الجديدة السؤال الأخير في الموضوع الذي نشر على ثلاث صفحات وهو: أول فيلم مصري شاهدته في القاهرة هو "شيء من الخوف" فما رأيك فيه، ودون أي حرج؟

وكان جواب كلوني "لا أعتقد أنه فيلم جيد لأنه مكوّن من عناصر مختلفة كل منها يذهب في اتجاه معين. وبالتالي يحدث 'انفجار' في الفيلم. وإذا كان المخرج قد وفّق في بعض المشاهد، وإذا كانت بعض المشاهد الأخرى قد عبّرت عن الاستبداد الذي عانى منه الشعب المصري في تلك الفترة، إلاّ أن الفيلم في النهاية هو مجموعة من 'التابلوهات' دون وحدة. وهو ما يمكن أن يوقظ عند المتفرّج نفس الإحساس الذي يحدثه فيلم ميلودرامي، لأنه يركز على علاقات درامية بين الشخصيات لا على الموقف الاجتماعي الذي اتخذه المخرج منطلقا للفيلم الذي بدا لي مسرحيا إلى حد ما، وإن كان هذا لا يمنع أنني وجدت فيه أشياء جيدة جدا وأشياء أخرى رديئة جدا!."

أما رأي كاتب هذا المقال فهو أن "شيء من الخوف" أحد أفضل أفلام السينما المصرية. ولا بد أن "الخواجة" كلوني شاهده طبقا لمنطق السينما التي كان يصنعها جان لوك غودار. من يدري!

المصريون يفقدون الفنان الفطري الأشهر «شعبولا»

غيّب الموت، صبيحة الثلاثاء، الفنان الشعبي المصري شعبان عبدالرحيم، الشهير بـ"شعبولا"، وهو الذي أحيا قبل أيام حفلا غنائيا ضمن فعاليات موسم الرياض بالسعودية، وظهر جالسا على كرسي متحرك بسبب إصابته بكسر في القدم وتركيب شرائح داخلها، لكنه كان يعاني قبلها من مشكلات في عضلة القلب والعظام.

محمد عبدالهادي
كاتب مصري

القاهرة – رحل الفنان الشعبي المصري شعبان عبدالرحيم في أحد مستشفيات حي المعادي بالقاهرة عن عمر يناهز 62 عاما، الثلاثاء، تاركا فراغا في الساحة الغنائية الشعبية، رغم بساطة كلمات أغانيه واعتماده على لازمة موسيقية واحدة.

وقال الشاعر إسلام خليل، الذي ألّف جميع أعمال الراحل، لـ"العرب"، إن وفاته تمثل خسارة كبيرة للأغنية الشعبية، معتبرا أنه نقل مجالاتها إلى آفاق جديدة غير معتادة، وجعلها قريبة من الأحداث اليومية الحياتية للمواطنين.

ونجح شعبان، المولود بحي الشرابية بالقاهرة عام 1957، في النزول بالقضايا السياسية إلى رجل الشارع بأغانيه التي التصقت بالواقع، فلم يترك تطورات محلية أو عربية إلا واشتبك معها لتتنوع أعماله ما بين القضايا المحلية وحتى التعبير عن الانتفاضة الفلسطينية وانتقاد سياسات تركيا في المنطقة.

وحقّقت أشهر أغانيه "أنا بكره إسرائيل" التي استوحاها من أحداث الانتفاضة الفلسطينية، جدلا وصل إلى درجة اتهامه بمعاداة السامية، واضطرت سلسلة مطاعم لوقف حملة دعائية بصوته بعد اعتراض اللجنة الأميركية اليهودية.

وجذب خبر الوفاة أنظار عشرات الإسرائيليين على موقع "تويتر" للتغريدات القصيرة الذين تداولوا الخبر، وكتب بعضهم تدوينات معادية له تعتبر أعماله محرضة وتصفه بـ"داعية معروف للكراهية".

وأعد شعبان قبل أشهر أغنية تنتقد نقل السفارة الأميركية إلى القدس والاعتراف بها عاصمة لإسرائيل، تضمنت هجوما لاذعا على الرئيس دونالد ترامب، ووصفه بالمجنون ودعا شعبه إلى تنحيته من الحكم.

وقال السيناريست عبدالرحيم كمال، إن شعبان بألوان ملابسه ولازمته الموسيقية المكرّرة كان مؤدّي الفن الشعبي الوحيد وسط جميع الفنانين الذي صرخ في أكثر فترات الوطن خنوعا "أنا بكره إسرائيل".

ولم ينكر الفنان الراحل معاناته في بداية حياته من الفقر والتحاقه بمهن متواضعة من أجل مساعدة والده في الإنفاق على إخوته السبعة، ليتناوب على العمل بكيّ الملابس في محل صغير يمتلكه الأب وسط القاهرة، وكخفير يحرس المنازل، ومساعدا لعمال البناء والدهانات.

وظل يغني في الأفراح الشعبية حتى اكتشفه موزع جرائد بمنطقة بولاق بالجيزة، وقرّر إنتاج أول ألبوماته بعنوان "أحمد حلمي أتجوز عايدة" تضمن أغنية "مبخفش وأنت عارف (لا أخاف وأنت تعلم)" التي كانت سببا في دخوله السينما وجذبت أنظار داود عبدالسيد إليه.

ويقول الناقد الفني طارق الشناوي، إن المغني الشعبي الراحل عبّر عن طبيعة إنسانية تتجاوز الحالة الفنية، واستطاع من خلالها القفز على رهانات النقاد عند بداية ظهوره على اعتباره ومضة سرعان ما تختفي، لكنه استمر لنحو 20 عاما.

وتلقى شعبان على مدار رحلته الفنية هجوما حادا من نقاد الفن، ورفضت نقابة الموسيقيين طوال تاريخه الاعتراف به، واعتبرت أن ما يقدّمه ليس غناء ولا حتى مونولوج.

ويوضح الشناوي، لـ"العرب"، أن شعبان كان حالة لاقت النجاح في الشارع المصري عند ظهوره، لكن النقلة الجماهيرية حدثت عندما اقترب بأعماله من نبض الناس فترك تأثيرا يتعدى الأغنية الشعبية إلى التعبير عن معاني عميقة في النفوس.

وحرص الفنان الراحل على اللعب على تلك النقطة طوال تاريخه بتفريغ شحنات الغضب المشتعلة في النفوس واستغلال الطبيعة القومية للعرب، فهاجمت أغنياته قناة الجزيرة القطرية، وهنأ الليبيين على ثورتهم وحذرهم من الاقتتال.

ناصب شعبان الرئيس التركي رجب طيب أردوغان العداء وأعد ثلاثة أعمال خصيصا له تنتقد تدخلاته في الشؤون العربية، وموقفه في التعاطي مع شعبه وجيشه، امتلأت بكلمات فجة تصل إلى درجة الشتائم، لكنها واكبت موجة الهجوم التركي على النظام المصري.

ويقول نقاد، إن شعبان لم يكن مطربا بالتأكيد ولم يمتلك الوعي السياسي بالمعنى العميق، لكن بداخله "ابن بلد" (تعبير مصري يشير إلى الشهامة) يشعر بوجود عدو إسرائيلي يواجهه أو مخاوف ما تحيق ببلده يعبّر عنها.

وأعلن الراحل قبل 11 عاما عن تدوين سيرته الذاتية في كتاب، لم ير النور بعد، كي يستفيد منه المطربون الجدد من أبناء المناطق الشعبية الفقيرة التي عاش فيها طوال حياته حيث تنقل بين 14 منطقة فقيرة قبل أن يبلغ الشهرة ويكشف عبرها المشكلات التي ستواجههم.

> الراحل عُرف بتأديته لأغان ضعيفة الكلمات ذات لازمة موسيقية واحدة، لكنها تشتبك مع الواقع السياسي والاجتماعي

وأكد الفنان الشعبي نبيل وهيب، الذي كانت تجمعه صداقة وطيدة بشعبان عبدالرحيم، أنه شجع كل من يريد الغناء ودفعه ليأخذ خطوة للأمام، ونجح بسبب تلقائيته وطبيعته البسيطة، وقدرته على تغيير مزاج من يسمعه من الحزن والاكتئاب إلى الارتياح.

ويعتبر البعض أن شعبان كان يمثل إرهاصات بداية عصر أغاني المهرجانات التي سادت عرش الغناء الشعبي حاليا بسبب دفاعه المستميت عن حق الفنانين الشعبيين في الغناء، وظهوره معهم في أكثر من لقاء تلفزيوني، بعدما جمعتهم مشكلة واحدة تتمثل في عدم اعتراف نقابة الموسيقيين بهم.

كان شعبان عبدالرحيم بسيطا في تعاملاته ويقابل النقد دائما بسخرية حتى من هيئته وملابسه المزركشة، اكتسب احترام الجمهور بعلاقاته الخاصة بزوجته الراحلة التي رفض الزواج بغيرها لوقوفها معه في أيام الفقر، وتأكيده أن صوته ليس جيدا وأنه فقط يقدّم شيئا يبهج الناس.

حالة فنية خاصة استمرت لعقدين رغم الانتقادات